ASJP
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
Algerian Scientific Journal Platform https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:09 العدد:01 (2024) ص 18- 26

حديث اللّغة العربية وتماهي الكيانات الدّينية والتّاريخية
قراءة في قصيدة "لسنا بغير الضّاد نلتئم" لمصطفى محمد الغماري

Arabic speaking and the melting of religious and historical entities.
We cannot be unified without El DhadBy Mustafa Mohammed

فتيحة عاشوري

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف –الجزائر-

afatiha41@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/11/02
تاريخ القبول:
2024 /01/16

الكلمات المفتاحية:
- ✓ اللّغة العربية
- ✓ الدّين
- ✓ التّاريخ
- ✓ الهويّة

الملخص:

تروم ورقتنا البحثية إلى تبيان فضل اللّغة العربية، ودورها على مرّ الأزمان في حفظ الكيانات الوجودية، والهويات الذاتية والوطنية والقومية، انطلاقا من التحاملات الخانقة والحملات الشرسة التي اعترضتها ومازالت تعترضها، في محاولة منها لطمس معالمها، ومقومات وجودها، فضلا عن المد الحداثي بتياراته المختلفة الذي يسعى لتقزيمها في إطار حيز رجعي، لا لشيء إلاّ لأنّها ارتبطت بالدّين (القرآن)، ثم في إطار حيز جغرافي يقتصر على الناطقين بها من العرب، كل هذا جعل منها -في اعتقادهم- لغة كلاسيكية يمكن فهمها في إطار تراثي تاريخي، غير قادرة على قراءة الواقع واستيعاب منظومات ما بعد الحداثة، خاصة وقد أخذ عنها -كذلك- أنّها لغة الكيانات الروحانية، والشعر، والمشاعر، ترتبط بالقلب أكثر من ارتباطها بالعقل، والعلم، والحضارة وبالكيانات المادية ككل، ولذلك حاولنا انطلاقا من خصوصية اللّغة العربية عند "مصطفى محمد الغماري" تتجاوز الإطار المفاهيمي العام لها استحضار المقاربات التي تقف عند جدل الكيانات الدينية، والتاريخية، والثقافية، والحضارية التي لا تقيم حدودا بين ما كان وماهو كائن وما يمكن أن يكون، وقد استدعى الإجابة على هذه الإشكالية تخيّر المنهج التاريخي، وكذا الاستعانة بالتحليل إجراء لتبيان وظيفية اللّغة العربية وحيويتها في بناء الكيانات في صورة تاريخية جديدة.

Article info

Received
02/11/2021
Accepted
16/01/2024

Keywords:
- ✓ *Arabic*
- ✓ *Religion*
- ✓ *History*
- ✓ *Identity*

Abstract :

Our research paper aims to show the virtue of the Arabic language and its role over time in preserving existential entities, self-identities, national and national identities, bassed on the stfling prejudices and fierce campaigns that have been encountered and continue to oppose them, in an attempt to obliterate its features and its existence, In addition to the modern tide with its various currents, which seeks to reduce it within the framework of a reactionary space, only because it is associated with religion (the Qur'an), and then within a geographical space limited to arab speakers, All of this, in their beliefs, has made it a classical language that can be understood in a historical heritage context, unable to read reality and assimilate postmodern systems, especially since it has also been taken from it as the language of spiritual entities, poetry, and feelings, more related to the heart than to the mind, Science, civilization and physical entities as a whole, That's why we tried bassed on the specificity of the Arabic language at Mustafa Mohammed al-Ghomari goes beyond its general conceptual framework to an approach that stands at the controversy of religious, historical, cultural and cultural entities that do not establish boundaries between what it was , and whatit is and what it will be.

1.مقدمة

تمثّل اللّغة العربية ركنا أصيلا من أركان الهوية، ومقوماً أساسياً من مقومات الشّخصية العربية التي ألفت الشّعار البديهي الذي يربط اللّغة العربية بالثابت الديني المتجذّر في عمق التاريخ الإنساني، وإلى دور الدّين في الحفاظ عليها من الهجمات الشّرسة التي تطاول عليها وتحاول طمسها، لا سيما ونحن نعيش عصر المثاقفة والأخذ بالعلوم والمعارف بغيرها من لغات العالم، ممّا جعل اللّغة العربية متهمة بالعجز والقصور، وبعدم قدرتها على أن تكون وعاء حاملاً لشتى صنوف العلم والمعرفة، ومن ثمّ بدأ التفكير، بل والدّعوة إلى هجرها، والاستعاضة عنها بلهجات محكية أو بلغات أخرى تحاول فرض نفسها عليها بالقوة (لغة الاستعمار مثلا)، ومن ثمّ وسمها انفرادها بالجانب الرّوحي (الديني) دون المادي (الاقتصادي والتكنولوجي)، في حين تمثل باعتقادنا وعاء التراث والثقافة والفكر للأمّة بما فيه المادي إذا عدنا أدراجنا إلى الماضي السحيق، فقد استهلكت اللّغة العربية جميع الجوانب بما فيها المادي، فضلا عن كونها وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها لفهم القرآن الكريم والسّنة النبوية الشريفة، وكذا استيعاب المنظوم من أشعار العرب، فاحتوت بذلك حضارة برمتها بلغت أطراف الأرض وأقاصيها، ووقفت على تخوم المستكين منها تستشعر همه، وتشحنه، وتشحذه بين الفينة والأخرى بقوة كيانه، ووجدانه، وفكره، وظلّت تستحضر مقومات شخصيته وعناصرها، وكأنّها تختلي به خوفا من الاندثار أو الذوبان في ظلّ الهجمات التي تقودها العولمة في صورة جديدة من الاستعمار الذي يهدف بالأساس إلى استدمار الفكر والثقافة، واستغراب اللسان تحت مسمى الحضارة والتكنولوجيا والثورة المعلوماتية.

2. أنوار اللغة العربية الوظيفية والشارحة

تمثل اللّغة العربية عنصرا جوهريا في وجود الشعوب والأمم، فغالبا ما تمثل الحدود اللغوية لبقعة جغرافية معينة الحدود السياسية لأمة ما؛ فارتباط اللغة بالمجتمع كارتباط المجتمع بالوطن، غير أنّ ارتباطها بالقرآن جعل منها ثابتا أساسيا من ثوابت الهوية، الأمر الذي جعلها من الأهمية في نفس الإنسان ذاته، وفي تميّزه عن سائر المخلوقات، إذ تمثل اللّغة أداته الفكرية واللسانية والتواصلية، مكنته من الشعور بذاته، فتاريخ الإنسان منذ البدء مقترن بوجود اللغة؛ فاللغة أهم مظاهر سلوك الإنسان، وهي أيضا الرابط التاريخي الذي يشد عضد أبناء الأمة الواحدة، ويعزز قيم الانتماء إليها، يتبادلون عن طريقها الأحاسيس والمشاعر بما يحقق الإفهام والتفاهم بأقرب طرائقها، فكانت تعبيرا وتعليما وتفاعلا وتعاضدا، كيف لا وهي الوعاء الحضاري وأهم مقاييس رقي الأمم.

اللغة صورة للحياة نفسها، تتطور معها سلبا أو إيجابا، فلا غرو إذا ظهر عليها ما يظهر في الحياة من إسفاف ومن قوة، ومن عز أو ذل، فاللغة تتمثل الحضارة ونظمها، عاداتها وتقاليدها وعقائدها، ومظاهر نشاطها العملي والفكري وثقافتها العامة...عبر ما تسجله من ذاكرة تاريخية واجتماعية وثقافية، ذلك لأن كل تطور في الحياة يعقبه تطور في اللغة، ولذلك أيضا عُدّت اللغة العربية سلوكا جماعيا وثقافيا وحضاريا، كونها حاملة للدين وللتراث وللقيم والمعارف، والأكثر من ذلك لأنماط التفكير، ولهذا نلفيها نحفظ الحضور المميز لها عبر التاريخ ولدورها في بناء المجتمعات العربية ونهضتها وتماسكها، "فمن خلال اللغة يستيقظ المجتمع ومن خلال وجه آخر منها يستيقظ الفرد بخصوصيته"(أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، 1949، ص272)، فتبقى الثوابت في ظلها حية في اللاشعور الجمعي، مترسبة في

الأعماق الإنسانية، فكيان اللغة ونظامها من كيان المجتمع ونظامه؛ "إذ بين الوحدة الاجتماعيّة واللغة علاقة متبادلة.. وتخلق الآصرة الاجتماعيّة الوحدة اللغويّة، وربما تفرض على اللغة المشتركة بعض الصفات الخاصة"(فرديناند دي سوسور، 1985، ص245)، لذلك فتاريخ اللغة العربية تاريخ حافل بهذه الأواصر التي التف في اليوم بالأمس، فانعكست ظلاله وارفة على حقائق وإن غابت عن الفكر الإنساني، فإنّ العربية تحفظها، ويكفينا فخرا صنيعها في ذواتنا بفضل رباطها الروحي الذي ألّف بين أفراد المجتمع الواحد، وهو مايفسّر لنا حرص الدول الاستعمارية على نشر لغاتها؛ إذ كشفت اللغة العربية لنا – بفضل ماتمارسه من وعي– عن سلطتها من خلال أياديها الخفية التي تعتمل في مستويات اللاوعي الفردي والاجتماعي والديني والسياسي ....، وتحيلنا إلى إدراك العالم وفهمه، ومن جهة أخرى تنمي فينا الوعي الوطني والقومي، وتنشر فينا روح (المواطنة، القومية) اللغوية، ومن هنا كان" تشبث المجتمع الجزائري بالإسلام واللّغة العربية خلال عهد الاحتلال الفرنسي كأحد مقومات الشخصية الوطنية والقومية تجاه الغزو الثقافي الفرنسي، وعمليات الاستئصال والمسخ لهذه المقومات"(أحمد بن نعمان، 2008، ص ص196-197)، ومن هنا أيضا جاءت اللّغة العربية تروي لنا أحاديثها الواصفة الشّارحة التي استلزمت الانفتاح على منافذ رؤيوية جديدة، وبوسائل فنية حملت اللّغة على أن تستوعب مقاربة الرؤية الشّعرية، فتعامل الشّعر معها بسمو ورفعة، مكنت الشّاعر"مصطفى محمد الغماري"من التحليق في عوالم الرمز ليكسر كلّ ما هو مألوف، وليطلق العنان لوعي الفكر باللّغة وبالواقع والتّاريخ، وبكتابة الشّعر تحديدا، وتمنحه القدرة على "المزاوجة بين الرؤية النقدية والإبداع الشعري" (الطاهر يحياوي، 2013، ص194) يصل معها الشاعر إلى درجة انغماس الرؤية الذاتية وذوبانها في الموضوع، تتوهج اللغة في إطارها إشعاعا مضيئا ينير دروب القصيدة، ويزيدها دفقة شعورية أكثر إحساسا وعمقا، وانتصارا لرؤية أشمل للعالم والوجود وللإنسان.

تتجلّى قصيدة "لسنا بغير الضّاد نلتئم" لمصطفى محمد الغماري حديثا من أحاديث الشّمس والذّاكرة، حديثاً اقرب إلى تمثّل الهوية التاريخية في صورتها الإسلامية، وفي حرصه الشّديد على انغماس الذّات ضمن هذه الكلية التاريخية، تتجلى فيها اللغة العربية معطى هوياتياً تاريخياً ودينياً، تستدعي التاريخ وتستذكره، وتلفت الانتباه إلى سؤال الكينونة وكنهها، وتاريخها الطويل من النضال، وتقرّ بأنّ حيوات التاريخ وأنواره الممتدة عبر الزّمن ستظل ساطعة شمسها في ذاكرة الأجيال، وسيظّل حديث الشّمس والذّاكرة حديثاً ذا شجون، ملح بثقله على محاصرة وهم المراكز على الهامش، ومدى احتواء اللّغة لخدوش الذّاكرة والتّاريخ والأكثر من ذلك توسّمها للوهج النوّراني الرابض في الكيانات على امتدادها التّاريخي والدّيني، ذلك لأن "البحث في الوظيفة التاريخية والاجتماعية للغة بحث متجدد على مر العصور... لا يقتصر على حاضر كل لغة، وعلى ما يتضمنه هذا الحاضر من إمكانيات قابلة، بل ليمتد حتى يدخل في دراسة الماضي"(محمود السعران، 1958، ص: 03). ولذلك آثرنا أن نطرح هذه الإشكالية لاستقصاء اللّغة كفعل مقاوم ضدّ كل ما من شأنه تعميق الهوة بين عناصرها الوظيفية الموجودة بالقوة ومدى تحققها بالفعل من خلال تتبع مسارات القصيدة ضمن البناء الكلي (الديوان)، ومن جهة أخرى نقتفي أثر الذاكرة الفردية والجمعية وعلاقتهما بالتاريخ ودورها في تجديد الكتابة والكتابة التاريخية، أين للغة وظيفتها الحيوية في استرداد هذه الذاكرة التي استوقفت الماضي من أجل الحاضر والمستقبل، وعمدت إلى توحيد الأزمنة والأمكنة على نحو متعاظم من أجل إعادة بناء الهوية في صورة تاريخية جديدة.

3. تمثلات التاريخي والديني في قصيدة "لسنا بغير الضاد نلتئم"

تبدو المحاولات التي تتربص بالعربية – في الحقيقة– محاولات تستهدف الدين (القرآن) بالأساس، فلطالما كانت اللّغة العربية، وما تزال حلقة الوصل بين ما كان وما هو كائن وما يمكن أن يكون؛ بين الماضي من خلال رصدها للتاريخي إلى فضاء التغني بالأمجاد، ومن ثم تشكيل الصورة القائمة على روح الانتماء والهوية، وفي النّص الذي بين أيدينا تلوح هذه الرؤية باذخة اللحمة، عتيدة الأواصر، ولعلّ أول ما استفتح به شاعرنا قصيدته هذه المصالحة التي تلحم الحاضر بالماضي، وتنبري بهما نحو ما يمكن أن يكون مأمولا، وتتجلى لغة الضاد الوسيط الحاضن الذي يكفل عملية التواصل، ويعوّل عليه حتى تتم عملية الانبعاث والامتداد عبر الزمن، فيرى أنّ اللّغة العربية وحدها كفيلة بهذا الخلق والتجديد تحت راية الإسلام، وإليها ينتسب العرب، لذلك فوحدها العربية كفيلة أيضا بلم شمل الأمّة تحت راية واحدة، وهدف موحّد، وفي هذا المقام يكفينا فخرا أن أوراسنا انتفض ثائرا لأجل هويتنا، لعروبتنا التي جمعت شتات لهجاتنا، فهو القائل (مصطفى محمد الغماري، 1986، ص: 45):

"العـاشقــان السيف والقلــم
والخـــالــدان اللّـــه والقيـم
بـالفـاتحيـن أمـدّ أغنيـــــتي
كبراً...ويزهــر في الـدّم الحُلُـمُ
الضّادُ...لولا الضّادُ مـا صهُلَت
(أوراس) لــم يخطر لهـــا علـم"

ويرسم شارعنا صورة أخرى من الصّور التي تحاك ضد الإسلام والعروبة والعربية، وكذا الموجات الغربية المعادية لهما في ظلّ التيارات والمذاهب التي تروّج لعولمة الأنا...اللّغة... والهوية، خاصّة وأنّ فترة السبعينات كان يسودها التيار اليساري الذي ينهل باسم الحضارة الغربية مبادئه، والذي تبنته كوكبة من المثقفين والنخب في الجزائر الذين تحدثوا باسم الغرب لا باسم العروبة، يقول شاعرنا(مصطفى محمد الغماري، 1986، ص: 46):

"واللاّهثـــون الـرّيـح والظلـم
غنّى السّـراب لهـم فـأطربهـم
عجبـــا.. ولا كـأس.. ولا نغم!
المـدمنـــون الغـرب يشربهـم
فكـر.. بزيف العصـر ملتئـــم
بـــاسم الحضـــارة في بهارجهـــا

غــاصو، وفي أوكــارهـا غنمــوا
إنّ يلحدوا في الدرب، لا عجب
فـــالملحد الأفيـــون والسّــأم!"

ويذهب"الغماري" في تعامله مع الكلمة في حديثه عن اللّغة بعمق اللّغة في حدّ ذاتها، خاصة عندما توسل" تجسيم المعنويات وتجسيد الأشياء المجرّدة"(محمد ناصر، 2006، ص: 330)، هذا التجسيم والتجسيد أبان عن مقدرة فنية فريدة، مكّنته من ناصية الشّعر، وفتحت أمام القارئ نوافذ لا متناهية من التأويل تثير في النفس الشعور بالإرباك والقلق؛ هذا القلق تعادل موضوعيا مع طرحه بطريقة أو بأخرى لموضوع "قلق الهوية"، التي وإن جاهد الآخر اشتغاله عليها، بإحلاله لفجوات بين متكلميها داخل الرقعة الجغرافية الواحدة – مشيرا في ذلك إلى الوطن الجزائر–، فإنّ اللّغة نفسها تعمل على تهدئة هذا القلق، كونها الجامعة لكلّ الكيانات مهما تعدّدت قصّة كلّ شبر من أراضيها، وتنوعت مشارب الثقافة بين أبنائها، ولعلّ في قوله(مصطفى محمد الغماري، 1986، ص ص: 46، 47):

"بنت الفتـوح الخضر ملحمـة
بكر.. عليها الصّخر منحطم
في كلّ شبـر قصّـة سطـرت
بـدم.. ومـاض في الفتوح دم
في مثـل هـام المجد هامتهـــا
وبحجم تـاريخ الهوى الشمـم"

مايشير إلى أنّ الجزائر تاريخ طويل من الملاحم والبطولات والانتصارات التي غذاها الإسلام بقيمه، ووحّد شملها على الكلمة الواحدة، وعزّزتها اللّغة التي كانت وما زالت تشكّل فارقا أساسيا في تعزيز الفهم المشترك بين مختلف أطيافها.

بيد أنّ الشّاعر ظل ملتزما بين كل مقطع وآخر بتلك الصّلة التّي تجمع اللّغة بالدّين، بالعقيدة، بالجزائر، وبشعبها، وبقوّتها في ذروة ثورتها دون كلل أو ملل، وهذا ما يجسد الشّعار القائل العربية لغتنا والإسلام ديننا، والجزائر وطننا التي دفع شعبها زهاء المليون والنصف مليون شهيد لأجل إعلاء راية مجدها، وعروبتها خفاقا عاليا، يقول الشاعر (مصطفى محمد الغماري، 1986، ص ص: 46،47):

"إنّ الجزائـر في العقيـــدة مـا
كلّت، ولا زلت لهـــا قـَـدَمُ..
بُنِيَـت على التوحيـدِ وحدَتُهـا
إن أدمنـت أوثانهـــا الأمـــم
هـــي وحـدة الضّـاد نسبتهـــا
ملء القلـــوب الضّاد والكـرم

في الضّـــاد، يابيضاء، وحدتنا

لسنـــا بغيـر الضّـاد نلتئـــم"

وفي هذا – أيضا– إقرار صريح بالدور الذي لعبته اللغة العربية في درء الانقسامات والفتن، وضمد الجراح التي ألمت بالشعب الجزائري خاصة فترة مابعد الاستقلال، فحملت بذلك على عاتقها مسئولية مواجهة الايديولوجيات التي أنكرت وجودها الذي ارتسمت معالمه وتحدّدت مع نزول القرآن الذي أضاء بها دروب كانت مظلمة(مصطفى محمد الغماري، 1986، ص: 48):

"طربـوا، وعقبى سكرهـــم نـدم

إن ينكروا الحرف المضيء. فكم

مقل تضـــيء دروبهـا الظّلـم

إن ينكـــروا القــرآن في دمنـا

ماضرّنـــا .. والمنكـرون همـــوا"

ويقف الشّاعر بشموخ وإجلال متيقنا من الدور الذي لعبته العربية منذ نزول القرآن في التصدي لهجمات الحاقدين الشرسة على حرفها، وكذا لقيم انفرد بها الإسلام والعرب دون غيرهم من الأمم؛ ففي ظلها بلغ العرب ذروة حضارتهم، وعزتهم، ومجدهم؛ وتقف بغداد عاصمة الخلافة شامخة، ولعلّه هنا بذكره إيّاها يستوقف القارئ عند مدرستي البصرة والكوفة باعتبارهما مركز إشعاع لما لهما من دور عظيم في تنوير العقول، والنهوض بالإنسان، وحمل رسالة النهضة العربية الإسلامية، في محاولة منه إعادة الوهج للغة العربية الذي ارتبط بطريقة أو بأخرى بالوهج المتجلي في توظيفه لمفردات الإشراق ومعانيه؛ ذلك أنّ اللغة عند "الغماري" تأخذ منحنيات وأبعاد ذات دلالات فنية مشرقة، يتحطم فيها جدار الزمان والمكان، وتسقط فيها العلاقات اللّغوية التقليدية"(الطاهر يحياوي، 2013، ص209)، ولعلّ هذه الخاصية في الكتابة من مميزات التجديد الشعري الذي يكاد يكون أقرب إلى لغة المتصوفة منه إلى لغة الحضور الاعتيادي، وإن بدا شديد الارتباط بها، خاصّة وأن ""مصطفى محمد الغماري" قد سبق إلى استرفاد الأبعاد الجمالية لقصيدة التصوف الإسلامي في تجاربه الأولى منذ سبعينيات القرن الماضي"(الطاهر يحياوي، 2013، ص 243)، أين أمكن له قلب وظائف مدركات الحواس وتماهيها مع الخيال الباطن الملتف التفافا روحيا حلوليا مع غرف القلب وكشوفات رؤياه.

يشعر القارئ لديوان "الغماري" ولهذه القصيدة تحديدا بأصالة اللّغة التي تعكس وعيا فكريا وفنيا بكتابة الشّعر، مشدود بالأساس إلى وعي الشّاعر بالذات، بيد أنّ هذه الأصالة اللّغوية المتجلية على مستوى اللّغة والشّكل يصحبها تجديد على مستوى التوظيف للمفاهيم، اصطبغت برؤية فنية جديدة وجريئة، تماهت فيها الذات بالموضوع، وعاجت بالقارئ إلى فضاء من الدلالات مشّع أحيانا، ومقفر أحيانا أخرى، ثم إلى التضايفات التاريخية التي تستدعي قارئا نموذجيا ملما بحيثيات التاريخ وبأسراره، غزيرا بثقافاته المتنوعة، محيطا بعوالم اللغة، مدركا لروح العصر، لذلك نلمس في عالم "الغماري" الشعري تلك المراوحة بين الرؤية التي تستقرئ بواطن التاريخ، وتقيم تحقيقا حول دور اللغة وأمانتها في نقله، وتوحيد الأمة الإسلامية على راية و رؤية واحدة، هذا وقد استطاع "الغماري" أن يشد عضد

النص، ويقيم هيكله الداخلي والخارجي بالصورة المشرقة التي وصلتنا من خلال اعتماده على آلية التكثيف التي تغلّف اللّغة، ممّا سمح باتساع آفاق الرؤية من خلال "إشباع اللّفظ وإجاعة المعنى" (ابن رشيق، 2001، ص: 212)، التي تلقي بجوهر المعنى إلى أبعد حدود اللاّمعنى.

والقصيدة الرؤية لم يتشكل هيكلها العام وبناؤها الفني والموضوعاتي إلاّ مع "الغماري"، لذلك فهي السبيل المشرق الذي تتحرك ضمنه أغلب نصوص الشاعر؛ فهي بمثابة الشراع المفتوح على رؤية شعرية جديدة،"لا يقف الغماري فيها على استخدام المجاز عند حدّ، فهو يبتكر العلاقات بين الألفاظ يسعفه في ذلك خيال مجنح، وجرأة غير متناهية في التعامل مع المفردات والتراكيب"(الطاهر يحياوي، 2013، ص209)، وضمن هذه اللغة المفتوحة تتفاعل النصوص عبر الزمكان وتتفاعل معها الكيانات التاريخية والدينية والاجتماعية والثقافية...ضمن متوالية متسلسة حدها الأول هو الإنسان، الجزء الذي لا يتجزأ من هذا العالم والوجود الغير محدود، والذي تحاول اللغة –وسيطا– بكل ما أمكن فهمه وترجمته واحتواءه في الصورة التي يتمثلها الفكر.

ويبلغ الإشراق عند "الغماري" حينما تستند قيم الحرية والنهضة على عدم القابلية للاستعمار على حد تعبير "مالك بن نبي"، منوّها إلى أنّ الأوطان لا يمكن أن تبنى بغير سواعد أهلها، في إشارة منه إلى المسالك التي ينتهجها الاستدمار في غزوه باسم الحضارة والتحضّر، ثمّ إلى أولئك الذين انقادوا خلفها ولم يستفيدوا منها سوى صوت الردى والصدى، فيقول (مصطفى محمد الغماري، 1986، ص 50):

"باسم الحضارة كم دم سفحوا
حرّ وكم من عــروة فصموا..
كم باسمها سكر الــرفيق وما
في الكــأس الأدمعــة ودم
قيم الحضــارة يــا مقاصل أن
تنهار بـــاسم الثورة القيم!..."

فالشّاعر انطلاقا من هذه الخلفيات والأبعاد المتعددة (الدّينية والإيديولوجية والتاريخية و...) يوجه دعوة ملحة بضرورة الالتفاف والالتفات للغتنا العربية، ولنهج ديننا، بل ويستوقفنا للدور الذي لعباه قديما من أجل إعادة النظر فيهما، ذلك أنّ إعادة بناء الإنسان العربي من إعادة إحياء اللّغة العربية؛ فتأريخ اللّغة يمثل تأريخا لكينونة الإنسان، وتحضّره لصيق بتطوّرها، يقول "الغماري"(مصطفى محمد الغماري، 1986، ص 50):

"والنّصر في إشراقــه حلــم
وأراك في البيضــاء وحدتنــا
إن أدمنت أوثانهــا الأمــم

هي وحدة للضـّاد نسبتهـا

ملء القلوب الضّاد والكـرم

في الضـّاد يابيضـاء وحدتنا

لسنـا بغير الضـّاد نلتئـم"

وهناك يتقاطع "الغماري" مع "مالك بن نبي" في مقاربته لتاريخ الكيانات، وأسباب نهضتها التي ربطها كما أشرنا سلفاً بإعادة بناء إنسان جديد بتصفيته من القابلية للاستعمار، "فتصفية الاستعمار في الإنسان تشترط تصفيته في الأرض ويجب أن تتقدمها"(مالك بن نبي، 1978، ص: 51)، ولايتم ذلك على مستوى الجغرافيا فحسب، وإنّما على مستوى الثقافة والكيانات والهويات، وكذا الوسائل التي ساهمت في ديمومتها.

تقبع اللّغة العربية مكانا سامقا كونها بندا من بنود هويتنا، ومعقل أفكارنا، وأداة نسخها، وهي في نظر شاعرنا أداة بناء وتوحيد، ولحمة، و وئام، وهي أيضا أداة إخبار وتقصي، واستقصاء للتاريخ، وللكيانات الحيوية الفاعلة فيه، لذلك نلفي شاعرنا في قصيدته "لسنا بغير الضاد نلتئم" يلتحم صوته بالماضي، ويقيم الحجة التاريخية بالدور الذي أدته اللغة العربية في بناء الحيوات، لأجل هذا وذاك فهي تمثل دعوة صريحة للتذكير بتاريخ الإنسان الحافل بالمآثر والبطولات والانتصارات، ولتحفيزه من خلال تجارب سابقيه على إعادة بنائه حيواته، بإحياء اللغة في التاريخ والدين.

ويبقى السّؤال التاّريخي والدّيني الذي تطرحه اللّغة العربية إضافة إلى بعدها التوّاصلي والجمالي عند "مصطفى محمد الغماري" يكمن في نزعتها الفلسفية الملازمة لأشعاره، ذلك أنّه مهما حاولنا المقاربة النقدية، وتقصّي جماليات الفلسفي في التّجربة الشّعرية عند "مصطفى محمد الغماري" – التي ترنو نحو عوالم مغرقة في الضبابية، موغلة في الصوفية والسّريالية– أين يكمن المعنى في اللاّمعنى، تظلّ شعرية اللّغة العربية –دائما– شعريّة الحلم والرّؤى والرّؤيا، يرتمي الشّعر إليها ويحتضنها في غمرة الأحداث التّاريخية والدّينية والاجتماعية والفكرية والثّقافية...، مطيّة يتوسّل منها السّجل الحافل لحيوات الكيانات والكينونات في تفاعلها معها ذهاباً وإياباً مع حركة الزّمكان في تطوّرها صعوداً ونزولاً.

وإذا كان "موضوع العلم الأدبي ليس الأدب بل الأدبيّة ..."(جيزيل فالانسيGisèleValency، 1997، 215) على حد قول "رومان جاكبسونRoman Jackopson"، فإنّ تجربة "الغماري" الشّعرية متجاوزة لما هو أدبي وشعري إلى دور اللّغة في الاحتفاظ بالوقائع وتماهيها مع كلّ ماهو تاريخي وديني و...باعتبارها الذاكرة الحية التي يمكن العودة إليها مرجعا لتثبيت الأحداث، ذلك أنّ " اللّغة هي الركيزة الأساسية التي يبنى عليها الإبداع، وتقوم على خصائصها حيثيات العملية الشّعرية، فالتعبير الأول يمس اللّغة ونظام توظيفها ثم يتوالى التعبير في توظيف بقية الخصائص توظيفا برؤية جديدة تتماشى مع الهاجس الجديد"(الطاهر يحياوي، 2013، ص239)، وتظل علاقة الفن (الأدب) والشّعر منه على وجه الخصوص علاقة تكامل، كل منهما يؤدي دوره ضمن الحيز الوظيفي الذي يقتضيه .

4.خاتمة

تظل اللّغة العربية اللّغة الأكثر أهمية بين اللّغات لارتباطها بالقرآن أولا، ولأمانتها في إيصال الوقائع والأحداث التّاريخية والثّقافية و...ثانيا، فضلا عن كونها تمثل الركن الأول من أركان الهوية، وبها أعيد الاعتبار لدور الذاكرة والتاريخ في إعادة بناء الحيوات، وتثمين دورها ومقامها في الفن والأدب، والشّعر على وجه الخصوص (ديوان العرب)، وما "حديث الشّمس والذاكرة" إلا نور من الأنوار التي زكّت روح العروبة بالالتفاف حول القضايا العربية الإسلامية المشتركة، وذلك باسترجاع الشّاعر للذاكرة التاريخية والدينية والثقافية، أدّت اللغة فيها من خلال بعدها الرؤيوي دورا هاما في عبور عالم "الغماري" الشّعري " من القصيدة إلى الموضوع إلى القصيدة الرؤية كان منطلقه الأساسي خلال خاصية الرمز في اللّغة والبناء عليها، وصولا إلى تحقيق الماهية المبتغاة"(الطاهر يحياوي، 2013، ص 239)، في محاولة منه لإدراك تفرد الذات وتفوقها من خلال المراهنة على تحقيق الإضافة الفنية المتميزة، ثم من خلال المنحى الصوفي الذي ألبس الشّعر التراثي لبوسا إبداعيا جديدا، وقالبا تصويريا موغلا في الحلولية تماشى وروح العصر، وبلغة جديدة تتماشى هي الأخرى مع النزعة الرؤيوية المغرقة في الماورائيات واللاّمحدود واللاّشعور.

قائمة المراجع

1. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (1949)، البيان والتبيان، الجزء الأول، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
2. أحمد، بن نعمان. (2008)، مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، الجزائر، دار الأمة.
3. ابن رشيق. (2001)، العمدة في محسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الرحمن هنداوي، ط1، بيروت، المكتبة المصرية.
4. جيزيل، فالانسي. (1997)، النقد النصي(مدخل إلى مناهج النقد الأدبي): مجموعة من الكتاب، تر: رضوان ظاظا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة.
5. الطاهر، يحياوي. (2013)، تشكلات الشعر الجزائري/ من الثورة إلى مابعد الاستقلال– دراسة نقدية–، ط1، الجزائر، دار الأوطان.
6. فردينان، دي سوسير. (1985)، علم اللغة العام، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، بغداد، سلسلة كتب تصدر عن دار آفاق عربية، رقم 3.
7. محمد، ناصر. (2006)، الشعر الجزائري الحديث– اتجاهاته وخصائصه الفنيّة 1975/1925، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
8. محمود، السعران. (1958)، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، ط1، ليبيا، المطبعة الأهلية بنغازي.
9. مصطفى محمد، الغماري. (1986)، "لسنا بغير الضاد نلتئم"، حديث الشّمس والذاكرة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
10. مالك، بن نبي. (1978)، بين الرشاد والتيه، ط1، دمشق، دار الفكر.